اسم الدرس : سـورة فـاطر | ج٤ | الآيات [٣٣ : ٤١]

تصنيف الدرس : مجلس تـفسـير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نستكمل بإذن الله –عزّ وجلّ– تفسير سورة فاطر. شرحنا المرة الماضية قوله –عزّ وجلّ– في الآية ٣٢ : {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}

وتوقفنا عند قول الله –عزّ وجلّ–: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}.

وذكرنا في المرة الماضية أن قول الله –عزّ وجلّ–: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} مثل قوله –سبحانه وتعالى– باصطفاء محمد –صلى الله عليه وسلم– بإنزال الوحي: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ}[فاطر:٣١]. وقال بعض المفسرين في: {لخبير بصير} أنّها بمعنى الآية: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام:١٢٤]، فكما أن الله –عز وجل– اختار واصطفى النبي –صلى الله عليه وسلم– للرسالة لأنّه أعلم بمن هو أهل لأن يحملها، فهو أيضًا اصطفى هذه الأمة–وهذا شرف للأمة– أن تكون أُمة القرآن، أمة النبي –صلى الله عليه وسلم – وأوصل لها القرآن، فقال {ثم أورثنا الكتاب}.

وقلنا في معنى: {أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ}، أن الوراثة هي انتقال شيء من قوم لقوم آخر، فإنزال الكتب انتقل للأمة المسلمة بعد غيرها من الأمم، وهي الوحيدة من الأمم في امتلاكها للكتاب، إذ أن ما عدا ذلك من كتب لا يعتد به بعد نزول القرآن المهيمن عليها كلّها والناسخ لما فيها والحاكم على صحتها.

فإذًا قوله –سبحانه وتعالى–: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}؛ يعني أن هذا اصطفاء من الله –سبحانه وتعالى– لهذه الأمة.

وقلنا في قوله: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ}، أنّهم أصناف: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} للأسف! تخيل إنسانًا يصطفيه الله ويختاره من أمة القرآن ثم يظلم نفسه بعد اصطفاء الله -عز وجل- له.

وقال بعض المفسرين: بدأ الله بذكر صنف الظالم لنفسه حتى لا يقنطه ويعطيه أملًا بأنّه يمكن أن يسبق ويسير مع الركب.

ومعنى: {وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ}؛ أنه يريد ألا يزيد على الفرائض بالنوافل.

وبعض العلماء قال: المقصود بالظالم والمقتصد والسابق من جهة العلاقة بالقرآن، فمن الناس ظالم لنفسه في علاقته مع القرآن، ومنهم مقتصد على قدر فهمه بأشياء يسيرة، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله.

والذي يساعد الإنسان على الانطلاق في الخيرات علاقته بالقرآن كما ذكرنا في الآية السابقة: {إِنَّ الَّذِينَ} ماذا؟! {يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ}. وجاءت بصيغة المضارع؛ لأنّه يتلو القرآن باستمرار، وجاء معها {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا}.

وقلنا أيضا: السبق لن يكون إلا بإذنه -سبحانه وتعالى-: {وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}.

فلم جاء مع مرتبة السابق بالخيرات -تحديدا- كلمة بإذن الله؟!

ذلك لأمرين:

*الأول: كي لا يغتر بعمله، فهذا لا يكون إلا بتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

*والثاني: أن هذه حقيقة.

وقلنا أن الصنف الثالث من الأصناف يوم القيامة: **المقرب**، وهو صنف مختلف عن أصحاب اليمين، فأصحاب اليمين هم من بذلوا وعملوا. وأمّا المقرب ككلمة مبنية لغير الفاعل، بمعنى أن هناك من قرّبه، والله هو من قرّبه، إذًا فهو يظل يتقرب، وآخر منزلة-المقرب- التي يمن الله فيها على العبد ويجمع له فيها بالطاعات هي من الله، والعبد لا يستطيعها،

لذلك لما جاء أحد الصحابة يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال له: (شرائع الإسلام كثرت

عليّ..) ماذا قال له النبيّ؟! وبم نصحه؟! قال له: (لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله)[١] .

فما علاقة تعدد الشرائع بكثرة الذكر؟!

إن كثرة الذكر تعطيك معيّة وتوفيق وسداد تستطيع بها أن تجمع بين الشرائع.

إذًا الجمع بين شرائع الدين المختلفة، والجمع بين الأمور المختلفة في الدين يحتاج إلى توفيق ومعيّة وسداد من الله –عزّ وجلّ–. وهذا هو معنى قوله سبحانه: {بإذن الله}.

واختلف العلماء في معنى: {ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}،

وما هو الفضل الكبير؟! هل السبق بالخيرات؟! أم إيراث الكتاب والوحي والقرآن؟! أم جنات عدن؟!

وفي الغالب إيراث الكتاب هو الفضل الكبير.

والآية: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ}[فاطر:٣٣]. تبيّن تمام الفضل عليهم بعدما منّ عليهم في الدنيا يمنّ عليهم في الآخرة ويدخلهم جناته.

فمن المقصود في قوله: {يَدْخُلُونَهَا}؟!

كما ذكرنا أن كثير من العلماء قال: أن الظالم والمقتصد والسابق كلهم في أُمة النبي –صلى الله عليه وسلم– من المسلمين، لكنهم مختلفين في درجة المعاصي والواجبات والنوافل، وعلى هذا القول: فإن صنف الظالم لنفسه يدخل في {يدخلونها}.

وبعض المفسرين قال: كلا الظالم لنفسه هم الكفار، فقوله: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ}؛ أيّ: اختار الكفر على الإيمان فظلم نفسه، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[لقمان:١٣]، فظلم النفس هنا الشرك. فهو قد ظلم نفسه واختار الكفر بعد أن جعله الله –عز وجل– يعيش وسط أُمة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

فيكون {مقتصد وسابق بالخيرات} هؤلاء أصحاب اليمين والمقربون، والثالث هو من ظلم نفسه وهم أصحاب الشمال، فالذي فسرها بهذا قال: {يَدْخُلُونَهَا} تعود على الاثنين المقتصد والسابق.

[١] [عن عبدالله بن بسر:] جاءَ أعرابيّانِ إلى رسولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ أحدُهما يا رسولَ اللَّهِ أيُّ النّاسِ خيرٌ قالَ من طالَ عمرُه وحسنَ عملُه وقالَ الآخرُ يا رسولَ اللَّهِ إنَّ شرائعَ الإسلامِ قد كثرت علينا فمرني بأمرٍ أتشبَّثُ بِه فقالَ لا يزالُ لسانُك رطبًا بذِكرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ابن مفلح (ت ٧٦٣)، الآداب الشرعية ٤٢٥/١ • إسناده جيد • أخرجه الترمذي (٢٣٢٩) مختصراً، وأحمد (١٧٧٣٤) واللفظ له

- إذًا فإن الذي اختار أن الظالم لنفسه من الكفار وليس من المسلمين، فعلى قوله فإن المقصود في: {يَدْخُلُونَهَا} هما المقتصد، والسابق- أصحاب اليمين والمقربين-، وأمّا الثالث وهو الظالم لنفسه -أصحاب الشمال- فلا يدخلها على هذا القول.
- والذي قال بأن الثلاثة من أُمة النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا فضل الله -سبحانه وتعالى- قال: {يَدْخُلُونَهَا} تكون للأصناف الثلاثة.

وفي الآية: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسهمْ فِيهَا حَرِيرٌ} نقطة مهمة جدًا لكي نفهم آيات النعيم، وآيات الوعيد في القرآن، قلنا أن القرآن نزل على واقع حيّ متحرك في صراع دائم بين الحق والباطل، لكن نحن لا نستشعر هذه الآيات كثيرًا لأننا لا نحيا هذه القضية ولا نعيش هذه المعركة.

أحيانًا يكون الثواب بالنسبة للصحابة لأنهم فقدوا مثل هذا الشيء في الدنيا، فعندما يقول الله: أن لهم غرف، أو يقول على لسان أهل الجنّة: الحمد لله الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ ، وكون الدار دار مقامة؛ أي أنها ثابتة لا تتنقل ولا تتحرك، فذلك لأنّهم كانوا يهاجرون ويجاهدون باستمرار ويتحركون طوال الوقت، ويخرجون من ديارهم سواء كانوا مضطرين مثل الهجرة، أو للقتال وللجهاد، فيخبره الله أن له مكان في دار المقامة هذه ليطمئنه ويفرحه.

وكذلك مثل الثواب في: {أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}[الطور:٢١] . فمن تشتتت عائلته كعائلة أبي سلمة وهو في طريق الهجرة، وأخذ منه قومه زوجه وابنه، فإنّه عندما يسمع آيات تقول أنّه سيجتمع مع أهله في الجنة يصبر، ويتصبر بهذه الآيات، ويتعزّى بعزاء الله -عز وجل- الذي أنزله في القرآن.

إذًا هي نقطة مهمة لفهم هذه الآيات، وأيضًا لفهم آيات الوعيد فإن المشركين كانوا يفعلون بالمؤمنين الأفاعيل، فتأتي هذه الآيات تهددهم وتتوعدهم بمثل ما كانوا يفعلون بالمؤمنين.

وكذلك آيات الجنّة، فعندما يسمع المؤمن: {لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ} وقد كان متعبًا، وكان يعمل ويجاهد، و يبذل، ولم يكن جالسًا، فعندما يقال له سيأتي مكان لن تتعب فيه، تنزل هذه الآيات بردًا

وسلامًا عليه ويطمئن بها، إنما غير المتعب، والذي لا يعمل لدين الله لن يستشعر قيمة هذه النعمة، أن يبشره الله بدخول مكان لا نصب فيه.

وأول من يدخل الجنة فقراء المهاجرين هؤلاء الذين تعبوا وبذلوا أموالهم وأرضهم وديارهم وكل ما يملكون لنصرة دين الله –عز وجل–، فهنا يقول –سبحانه وتعالى–: {جَنَّات عَدْن} ومن معاني العدن: الإقامة، و{يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَب وَلُؤْلُؤًا}؛ لأنهم تركوا زينة الدنيا لله، ودائمًا العامل لدين الله –عزّ وجلّ– يتعارض عمله مع التزين بزينة الدنيا، وذلك ليس لكل الناس وإنما للعاملين لدين الله –عزّ وجلّ– .

لذلك أول ما نزل من الأوامر للنبي –صلى الله عليه وسلم– ثلاثة أوامر: {اقْرَأْ}[العلق:١] و{يَا أَيّهَا الْمُدَّثِّر قُمْ فَأَنْذِرْ}[المدثر:١] و{يَا أَيّهَا الْمُزَّمِّل قُمِ اللَّيْل}[المزمل:١].

فالأمر الأول : اقرأ، لأنّه لابد من منهج تسير عليه، فمعك الوحي، حسنا معي القرآن ماذا أفعل به؟! تصلي به، وتدعو به.

والأمرين الآخرين: {يَا أَيّهَا الْمُزَّمِّل قُمِ اللَّيْل} و{يَا أَيّهَا الْمُدَّثِّر قُمْ فَأَنْذِرْ}

لكن لم جاءت لفظة المزمل مع قيام الليل؟! وجاءت لفظة المدثر مع الدعوة إلى الله تعالى؟!

قيل من الفُروقات بين المدثر والمزمل:

– أن **الدثور** هي الطبقات الخارجية، ولذلك يقول النبي– صلى الله عليه وسلم–: (الأنصار شعار..)؛ أيّ الطبقة الداخلية من الملابس التي تلامس الجسد، (والناس دثار)[٢] أي الطبقة الخارجية من الملابس؛ يقصد أن الأنصار أقرب له من كلّ الناس.

وعندما ذهب بعض الصحابة للنبي –صلى الله عليه وسلم– وحدثوه عن الأغنياء قالوا: (ذهب أهل

[٢] [عن عبدالله بن زيد:] لَمّا أفاءَ اللَّهُ على رَسولِهِ ﷺ يَومَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ في النّاسِ في المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، ولَمْ يُعْطِ الأنْصارَ شيئًا، فَكَأنَّهُمْ وجَدُوا إذْ لَمْ يُصِبْهُمْ ما أصابَ النّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقالَ: يا مَعْشَرَ الأنْصارِ، ألَمْ أجِدْكُمْ ضُلّالًا فَهَدانِيَ اللَّهُ بي، وكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فألَّفَكُمُ اللَّهُ بي، وعالَةً فأغْناكُمُ اللَّهُ بي كُلَّما قالَ شيئًا قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أمَنُّ، قالَ: ما يَمْنَعُكُمْ أنْ تُجِيبُوا رَسولَ اللَّهِ ﷺ. قالَ: كُلَّما قالَ شيئًا، قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أمَنُّ، قالَ: لو شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنا كَذا وكَذا، أتَرْضَوْنَ أنْ يَذْهَبَ النّاسُ بالشّاةِ والبَعِيرِ، وتَذْهَبُونَ بالنبيِّ ﷺ إلى رِحالِكُمْ، لَوْلا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأنْصارِ، ولو سَلَكَ النّاسُ وادِيًا وشِعْبًا لَسَلَكْتُ وادِيَ الأنْصارِ وشِعْبَها، الأنْصارُ شِعارٌ والنّاسُ دِثارٌ، إنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً، فاصْبِرُوا حتّى تَلْقَوْنِي على الحَوْضِ
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٣٣٠ • [صحيح]

الدثور بالأجور..) فالصحابة كانوا فقراء وكانوا يلبسون طبقة واحدة: إما إزارًا، أو رداء، أو ثوبًا واحدًا، فمن كان يلبس أكثر من طبقة فهو من طبقة الأغنياء، فلذلك قالوا: (ذهب أهل الدثور بالأجور)[٣] .

- **والتزمل** معناه: أن تلف جسدك جيداً، فالتزمل فيه معنى الخمول، والتدثر فيه معنى الترف، فمثلًا في الشتاء وفي الجو البارد عندما تلف نفسك بالأغطية والألحفة جيدًا فأنت متزمل، أما المتدثر يلف على بدنه بأكثر من طبقة وهذا عند الأغنياء المترفين.

فمن البداية: إن العبادة لا يناسبها الخمول، والدعوة لا يناسبها الترف، وهذه من أول قواعد نصرة الدين، وكل هذا مبني على: **{اقرأ}** معك منهج ووحي، فانظر إلى نفسك عندما تستيقظ متأخرًا فتجد الليل يدخل عليك وأنت مرهق وخامل ولا تنشط للعبادة، لأن العبادة تتطلب نشاطًا فلا يناسبها الخمول، والدعوة والعمل لنصرة دين الله لا يناسبهما الترف، فأنت تتحرك وتتنقل وتبذل لنصرة دين الله -عز وجل-، ولا يصلح أن تتكثر من زينة الدنيا، {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[الكهف:٢٨] ، فإرادة زينة الدنيا لا تتناسب مع الداعية.

فهؤلاء الصحابة الذين نصروا دين الله -عز وجل-، لما تركوا هذه الزينة أعطاهم الله في الجنة: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا}، وله أول ما يدخلها أن يتحلّى: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}، وهذا قمة الزينة وقمة المتعة، فالترف الذي تركوه من الملبس اللين والفراش اللين وزينة الدنيا كلّها لما تركوها في الدنيا نصرة لدين الله -عز وجل- عوضهم الله عنها خيرًا منها في الآخرة.

ولما دخلوا كان من المتوقع أن يقولوا: الحمد لله الذي أعطانا الذهب والحرير والنعيم، لكنهم لم يقولوا ذلك، فماذا قالوا؟!

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}[فاطر:٣٤] فقد كان عندهم إشكالية ضخمة قبل موضوع الذهب والحرير هذا، كان هناك شيء ما يتعب نفوسهم ويريدون أن يزيله الله -عز وجل- عنهم،

---

[٣] [عن أبي ذر الغفاري:] أنَّ ناسًا مِن أَصْحابِ النبيِّ ﷺ قالوا للنبيِّ ﷺ: يا رَسولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كما نَصُومُ، ويَتَصَدَّقُونَ بفُضُولِ أَمْوالِهِمْ، قالَ: أَوَليسَ قدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ما تَصَّدَّقُونَ؟ إنَّ بكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عن مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أيَأْتي أَحَدُنا شَهْوَتَهُ ويَكونُ له فيها أَجْرٌ؟ قالَ: أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَها في حَرامٍ أكانَ عليه فِيها وِزْرٌ؟ فَكَذلكَ إذا وَضَعَها في الحَلالِ كانَ له أَجْرٌ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٠٠٦ • [صحيح]

ولاحظ ليس: الحمد لله الذي أذهب [منا] الحزن، بل: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}، ولفظة {عنا} تعني: حمل ثقيل وضع علينا ونريد أن يزيله عنا أحد، حتّى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (بلغوا عني ولو آية)[٤] ؛ أيّ ارفع معي هذا الحمل، وانشر القرآن في العالم.

فمعنى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا}؛ أنّه كان هناك حزن ضاغطٌ عليهم يتمنون أن يزيله الله -عز وجل- عنهم، فما هو هذا الحزن؟!

اختلف فيه المفسرون:

- وكثير منهم قالوا مثلما قال الحسن البصري: "والله ما بهم من حزن على دنيا، والله ما حزنوا على دنيا، ولكن كان بهم خوف من النار!".

إذًا كان كل همه ورعبه من ماذا؟! من النار! هو خائف من النار! فكيف لعبد يترك الدنيا ويبذل كلّ شيء لنصرة دين الله ومازال خائفًا!

ذلك تمامًا مثل عباد الرحمن في الآية: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا}[الفرقان:٦٣-٦٤] ثم بعد ذلك: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ}[لفرقان:٦٥] ، فإنه يصلي طوال الليل ومازال خائفًا من جهنم! فهم بذلوا أموالهم وأرضهم ودماءهم لنصرة الدين ثم مازالوا خائفين من النار، فلما كان أول دخولهم للجنّة شعروا بالراحة، فقد كان هناك شيء يتعبهم وهذا الذي كان يشغلهم وليس الذهب والحرير، فلم يكونوا يطمحون لهما، كلّ ما كان يشغلهم ألّا يدخلوا النار.

- وهناك من قال أن الحَزن هو: المعيشة الصعبة، لأنهم كانوا يجاهدون ويبذلون فكانوا في تعب شديد، ومن معاني الحَزن: الصعوبة: (اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلًا)[٥] .

والحزن: الأرض الصعبة الصلبة، والسهل: الأرض السهلة الممتدة التي يسير الإنسان عليها بسلاسة. فالله قادر أن يشق الصلب ويجعله سهلًا، وقادر على أن يشق الأرض التي فيها جبال وصخور ويجعلها أرضًا سهلة مستوية.

---

[٤] [عن عبدالله بن عمرو:] بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً، وَحَدِّثُوا عن بَنِي إسْرائِيلَ وَلا حَرَجَ، وَمَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٤٦١ • [صحيح]

[٥] [عن أنس بن مالك:] اللَّهُمَّ لا سَهْلَ إلّا ما جَعَلْتَه سَهلًا وأنتَ تَجعَلُ الحَزْنَ سَهلًا إذا شِئْتَ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٩٧٤ • أخرجه في صحيحه

يقول الله –عز وجل–: { إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ}[النساء:١٠٤] فكانوا يتألمون جميعهم المؤمن والكافر، ولكن الفارق بين المسلمين والكفار في تكملة الآية: { وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ}، وهو رجاء رؤية وجه الله ورجاء الجنة، وكان هذا الرجاء مما ينسيهم الألم. وقال تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ}[آل عمران:١٤٠] ؛ أي قد كان يمس المؤمنين القرح وهو الألم والشدة، وكانوا يذوقون هذه الشدائد لنصرة دين الله –عز وجل– فلذلك قالوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}.

وقيل كل إنسان يحزن على قدر همته وهذه قاعدة، وفي ذلك القصة المشهورة التي كانوا دائمًا ما يقصونها علينا في الصغر لكي يربوا فينا نصرة الدين وعلو الهمة لنصرة الدين، والقصة هي: أنّه لما أراد الأعداء غزو الأندلس أرسلوا أحد جنودهم ليرى ماذا يفعل الأطفال، فوجد طفلًا يبكي فقال له: ما الذي يبكيك؟! فقال الصبي: كنت دائمًا أصيب الهدف أو الهدفين بسهم واحد، وهذه المرة لم أتمكن من إصابته بنفس السهم، فرجع الجندي وقال لهم: لن تستطيعوا أن تغزوهم الآن.

ثم بعد فترة ذهب مرة أخرى، فوجد شاباً يبكي فقال: ما يبكيك؟! فقال له الفتى: أبكي على فراق حبيبتي، فقال الرجل: الآن تغزوهم.

الشاهد: أن الإنسان يحزن على قدر همته، فإذا أردت أن تعرف همة شخص معين فانظر في الذي يحزنه، وما الأشياء التي يحزن عليها، فعلى قدر ما يحزن الإنسان على أشياء صغيرة تكون همته صغيرة، ولكن عندما يكون الحزن على أشياء عظيمة، فهذا إنسان همته عظيمة؛ لأن الإنسان طاقة، وطاقة الفرح والحزن طاقة محدودة عندما تستهلكها في أشياء معينة فإنّها تنفد. بمعنى أنه عندما تظل حزينًا على ما حدث في العمل أو على إطار السيارة الذي ثقب وعلى المال، وما إلى ذلك، تجد أن طاقتك تنفد وتتسرب، فما عدت تحزن على أحوال المسلمين، ولو جاء أحدهم يحدثك عن مشكلة للمسلمين تقول: أينقصني حمل زائد! أقول لك عندي من المشاكل كذا وكذا، فلم يعد لديك مساحة لتتلقى شيئًا آخر.

لكن عندما تكون همة الإنسان عظيمة ويحزن لأمور عظيمة، فلما يأتي من يخبره بمشكلة ما أو لما تصيبه أزمة فالأمر عنده بسيط والدنيا عندهم هينة، كالدنيا عند عباد الرحمن في الآية: {وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} لذلك إذا خاطبهم الجاهل وأتى يحدثه وكأن المشكلة عظيمة –وخاطب بمعنى خاطبهم بأمر عظيم وهي من الخطب– كان رده كما يقول عباد الرحمن في الآية: {قَالُوا سَلَامًا} ، فالأمر عنده أبسط من ذلك لأنه يعيش معانٍ عظيمة، وتجده طوال الليل ممن {يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا

وَقِيَامًا}، إنّه يحيا معانٍ عظيمة جدًا، ويسجد قلبه تحت العرش، فلما يأت من يحدثه في مشكلة صغيرة فإنه يعطيها قدرها الطبيعي.

وكي تعطي الأمور الدنيوية قدرها الصغير فحصول هذا ليس بالعضلات، ولا بأن تجلس مع نفسك وتظل تردد: لن أحزن ثانيةً، لن أحزن ثانيةً، لا تحل المشكلة هكذا، وإنّما لابد أن تمتلك قوة نفسية وطاقة تجعلك تحقر مثل هذه الأشياء.

وهذه الطاقة تأتي من قول الله –عز وجل–: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ}، إذ **ليس هناك ما يولد طاقة إيجابية داخل الإنسان مثلما تفعل قراءة القرآن في جوف الليل وفي قيام الليل**، وهذا مما لا مثل له في غيره، إذ يعطيك قوة وطاقة نفسية غير عادية! فالإنسان ضعيف بفطرته، فقد خلق من علق، والعلق: الشيء المتعلق الذي قد يسقط في لحظة، هذه خلقة الإنسان، فهو محتاج دائمًا إلى شيء ما يتعلق به، وأول سورة هي سورة العلق؛ فمن لم يتعلق بالله وبالوحي يسقط!

إن الإنسان ضعيف، فما ظنك إن كان ضعيفا ومع ذلك فهو يعمل لدين الله في ظل ظروف صعبة وأزمات كثيرة، وفي خضم تكالب أهل الباطل عليه: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}[الجن:١٩]؛ وقيل في معاني لبدًا قولين أحدهما: أي تجمع عليه أهل الباطل ليقتلوه وتكالبوا عليه، فانظر هذا التكالب مع هذه الأزمات، ومع ضيق العيش، ومع البلاء، ومع الجهد المطلوب منه، إن هذا كله يحتاج لقوة وطاقة نفسية، فإذا جاء الليل ووقف الإنسان يترنم بالقرآن، ويقرأ ما في رسالات الله – عز وجل– التي أنزلها إليه، ويعيش مع خلق السموات والأرض ومع الجنة والنار، ويكسر حواجز الزمان والمكان من داخل القرآن، فالقرآن يكسر له حواجز الزمان والمكان، فيكتسب بذلك قوة نفسية وكأنما خلق من جديد، وكأنما رمم هذا الضعف الذي أصاب قوته، فما بَلِيَ من عزيمته يتجدد، ويشعر وكأن خلاياه تتجدد مرة أخرى، وهذا أحد معاني قول الله –عز وجل–: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ} قيل في ناشئة: أي المعاني التي تنشأ بالليل، فماذا تفعل بك هذه المعاني؟! هي: {أَشَدُّ وَطْئًا}[المزمل:٦] فكأنها تطؤك! تخيل معي كأنك تريد أن تتغير، وملامحك تحتاج أن تتغير، والتجاعيد النفسية التي أصابتك تحتاج أن تتغير، والترهلات القلبية التي أصابتك من حزن وغم وتعب وإعياء ولغوب، كل ذلك يحتاج إلى ما يزيله وينسفه، فتأتي هذه المعاني العظيمة التي تقرؤها في القرآن، والتي لن تجدها في غير القرآن، فلن يتكلم بمثل

هذا الكلام أحد لأنه كلام الله –سبحانه وتعالى– وكأنها تطؤك! فتحس أنك تغيرت وأصبحت إنسانًا جديدًا، فتصبح طيب النفس، وبقوة وعزيمة.

فمن أين هذه الطاقة؟! من كلام الله –عز وجل–، وهذا أحد معاني كلمة: {يوقد}، وقلنا: الوقود في شرح آيات سورة النور: {يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ} ، فيه معنيين: النور والطاقة، والطاقة تكتسب من كلام الله –عز وجل–: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ}[النور:٣٥] ، والشجرة المباركة: القرآن، وقلب المؤمن يكتسب الوقود من كتاب الله –عز وجل–، ومن تلاوته.

فالشاهد: أن هذا يذهب عنك الحَزَن في الدنيا، وفي الآخرة تدخل الجنة فيذهَب عنك الحَزَن بدخولها، فمن يترك نفسه بدون هذا الزاد سيسقط.

ومن المعاني الجميلة جدًا ومن التساؤلات التي قيلت في: {أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}، سؤال: ما الذي يجعل الإنسان بعد دخوله الجنة يحزن؟! وعلى ماذا يحزن بعد دخوله إيّاها؟!

*قيل: أعماله، أيّ أنّه يريد درجة أعلى فيُرَضِّيه الله –عز وجل– بما هو فيه.

*وقيل: فراق الأحبّة، فلو كانوا مسلمين يشفعه الله –عز وجل– فيهم، فيذهب عنه الحَزَن، وإن كانوا كفّارًا يبصّره الله –عز وجل– بأنّهم يستحقون ذلك فلا يحزن عليهم، كما يحدث مع إبراهيم عليه السلام حينما يؤتى بوالده وكأنّه زَيخ متلطّخ، فيتبرأ منه إبراهيم عليه السلام، وقد تبرّأ منه في الدنيا.

الشاهد، أنّ كل ما يصيب الإنسان من غمٍ أو حَزَن، يذهبه الله –عز وجل– عنه داخل الجنّة، فهي دار الأفراح، وليس فيها حزن أبدًا.

فالإنسان يتعب ويكدّ: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}، ويبتلي الله –عز وجل– عباده بما شاء من أنواع الابتلاءات، وحين يدخل العبد الجنّة لا يتذكر شيئًا مما لاقى! وقال –صلى الله عليه وسلم– في الحديث: (ويُؤْتَى بأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيا، مِن أهْلِ الجَنَّةِ، فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابْنَ

آدَمَ هلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا، واللَّهِ يا رَبِّ!)[٦] ، فهكذا يفكر أهل الإيمان، إنّما الدنيا صبر ساعة.

فحينما يترك المؤمن شهوة، أو حين يترك شيئًا لله، فإنّه لا يبكي عليه ولا يلتفت إليه كثيرًا، فهو يعلم أنّه سيلقى جنةً هي دار الأفراح حقًا، وفيها كل الفرح، وأمّا الفرح في الدنيا فهو دائمًا ناقص ومشوّش و منغّص، وينقص ويزول ويذهب.

فيقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}، لأنّهم كانوا دائمًا يفكّرون ويبذلون، وهذه أخلاق أهل الإيمان، إذ كانوا يعيشون هذه الحياة لنُصرة دين الله -عز وجل-.

وحينما دخل المؤمن الجنّة ورأى النّعيم المبهر والحرير والذهب، وهو الذي كان كلّ طموحه أن يذهب الله عنه الحزن، قال واصفًا الله -عز وجل- بصفتين: {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}، وهو يعلم أنّه أتى بذنوب تذهب به إلى جهنّم! لكن (كل بني آدم خطّاء)[٧] ، فقال مفسرًا: معنى دخولي تلك الجنّة العظيمة أنّ ربنا غفور، ومعنى أنّي أرى هذا النعيم المبهر الذي لا يساوي ولا يقارب جزاء أعمالي أنّ ربّنا شكور! يقول: إن أعمالي لا تأتي بكلّ هذا الذي أراه، نعم فعلت أعمال صالحة لكنها لا تأتي بكلّ هذا النعيم! فكم سنة اجتهدت لكلّ هذا النعيم الخالد؟! وما هنّ؟!

لذلك يكون أول ما يقوله أهل الجنّة: {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ}؛ فأعلى صور شكر الله للعبد أن يقيمه خالدًا مخلدًا في الجنّة جزاء عبادته لأوقات محدودة، فقد أطعته وقتًا معينًا مقابل أن تنعم للأبد! وهذا من شكر الله تعالى لطاعة العبد.

ومعنى: {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} أنّه غفور على تقصيرنا، شكور لأعمالنا -سبحانه وتعالى-.

---

[٦] [عن أنس بن مالك:] يُؤْتى بأَنْعَمِ أهْلِ الدُّنْيا مِن أهْلِ النارِ يَومَ القِيامَةِ، فيُصْبَغُ في النارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقالُ: يا ابْنَ آدَمَ هلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا، واللَّهِ يا رَبِّ ويُؤْتى بأَشَدِّ النّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيا، مِن أهْلِ الجَنَّةِ، فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابْنَ آدَمَ هلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا، واللَّهِ يا رَبِّ ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٨٠٧ • [صحيح]

[٧] [عن أنس بن مالك:] كلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ، وخيرُ الخطّائينَ التَّوّابونَ
ابن القطان (ت ٦٢٨)، الوهم والإيهام ٤١٤/٥ • صحيح • أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وأحمد (١٣٠٤٩) واللفظ لهما، وابن ماجه (٤٢٥١) باختلاف يسير.

وجاءت كلمتي غفور وشكور أيضًا مع آية القرّاء: {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}[فاطر:٣٠]؛ فالذي يتلو القرآن يكون ثواب الله له على القراءة موجبًا لوصف الله بالغفور والشكور.

ويتبين لنا-كما قلنا- في قوله -عزّ وجلّ- على لسان من يدخل الجنّة: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ} ، أنّه كان يهاجر ويتنقل ويجاهد ويتحرك، ولم يكن مقيمًا، لذلك فالخروج من بيتك لنصرة الدين أمر مهم.

لاحظ هذا الجمال في قوله -عز وجل-: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ...}[الأنفال:٥] ، و{أَخْرَجَكَ}: كانت في أول غزوة وهي غزوة بدر، ومعناها: يجب أن تخرج من بيتك، والغزوة الثانية كانت غزوة أُحد، وأول آيات غزوة أحد كانت: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ والله سميع عليم}[آل عمران:١٢١] ، ففي أول مرة كان الله -عز وجل- هو من أخرجه من بيته، ففَهم وتعلّم أن الدين لا بد له من خروج، فكانت المرة الثانية أن خرج هو بنفسه من بيته مصبحًا مبكرًا: {غَدَوْتَ}، لذا لم تُذكر في الآية الثانية كلمة: "من بيتك"، لأنّ البيات فيه نوع من الاستقرار، بل قال الله -سبحانه وتعالى-: {مِنْ أَهْلِكَ} ، فقد عَلِم أنّ حياة الدين لا يوجد فيها استقرار.

إذًا فقد كان هؤلاء يخرجون ويبذلون لنصرة دين الله، فيجب أن يتربّى الإنسان على البذل.

وكذلك في الآية: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[النساء:١٠٠]، كان يمكن أن يقول الله ومن يهاجر إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت، لكنّه قال أولًا: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ} فخرج، وتحرّك!

ويقولون حين يدخلونها الحمد لله، والجزاء من جنس العمل، فجزاء تعبهم ألا يمسهم فيها نصب ولا لغوب: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}، فقد كان في الدنيا ينصب، وكان إذا انتهى من طاعة نصب في أُخرى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}[الشرح:٧]، وكان يسارع في الخيرات، وسابق بالخيرات، ولم تكن عنده فترات الراحة الطويلة وفترات الخمول الطويل، لأنّه ذاق معنى البذل والتضحية لنصرة الدين.

فعندما تذهب إلى شخص مريض وبقي ثماني عشرة سنة أو عشرين سنة وهو على فراش المرض، فإن أكثر شيء يصبره ويبشره أن تخبره: "أبشر بدار ليس فيها مرض"، فلو قلتها لشخص صحيح فإنه ربما لن يستشعر قيمتها، لكن عندما تقولها للمريض فهو الذي يستشعرها، فكذلك هم عندما يقولون: {لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} فهذا لأنّهم تعبوا من أجل الدين ونصرته، وبذلوا! ولم يكونوا مرفّهين! فقالوا: {لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ}.

وأيضا لم يقولوا: "لا يأتينا"، بل {لَا يَمَسُّنَا}؛ أيّ مجرد المسّ! لأنّ الجنّة فيها حركة وذهاب وإياب، ولقاء مع الزوجات، وخروج، فهل هذه الحركة تؤدي إلى التعب؟! يقول الله -عز وجل-: لا، لأنّها دار مقامة لا تنتهي، ودار سعادة وأفراح.

والنصب واللغوب بنفس المعنى عامة، لكن هناك فارق بسيط بينهما؛ بعض المفسرين قال: النَّصب هو التعب نتيجة العمل الجاد، لكنّك ما زلت مستمرًا فيه. وأمّا اللغوب فهو: الإعياء نتيجة أنّ العمل أصبح ثقيلًا عليك، فاللغوب بمعنى التوقّف وهو مرحلة أعلى من النصب.

وقيل النَّصب يكون بسبب الظروف الخارجية، لكنّك ما زلت ثابتًا داخليًا، فنفسيتك صلبة قوية، لكن الظروف المحيطة بك صعبة، أمّا اللغوب يأتي من داخلك لا من الظروف المحيطة، فكأن معنى: {لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} ؛ أن الظروف الخارجية للجنّة لن تتغير، وهم كذلك لن يتعبوا ولن يشعروا بأي نوع من الإعياء والتعب، فهذا ثبات أحوال الجنة، وهذا عكس التنقلات التي كانوا فيها في الدنيا، فلذلك يصبّرهم الله ويبشّرهم بهذه الجنّة لأنهم بذلوا وتنقّلوا.

لذلك في سورة محمد -صلى الله عليه وسلم- سورة القتال والبذل والتضحية، يأتي فيها قول الله -عز وجل-: {وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}[محمد:٢] مع المجاهد، والمجاهد آخر شخص تتوقع أن يبقى باله مستريحًا؛ بسبب الرصاص حوله، وتنقلاته، وتركه لأهله وبيته، ولعدم ضمان وجود رزق ثابت.. إلخ، فباله دائمًا مشغول، لكنّك تُفاجأ أنّه هو الوحيد في القرآن الذي قال الله -عز وجل- عنه مرتين في القرآن أنه تعالى أصلح باله مرتين: في الدنيا والآخرة، **فعلى قدر بَذْلك لنصرة الدين على قدر صلاح بالك.**

فالمقاييس الشرعية مختلفة عن مقاييس أهل الدنيا، بل يوجد أحاديث أن الله يذهب الغم بالجهاد، وهذا عكس كل المقاييس المتوقّعة! مثل الذي يتعامل بالربا، فهو يتوقّع أن ماله يزيد، لكن الله -عز وجل- يقول: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا}[البقرة:٢٧٦]، فالمقاييس الشرعية مختلفة، وكذلك الصدقة وهي إنفاق المال

فمعناها الظاهر: إنقاص المال، لكن الله –عز وجل– يخبر بأنّها تنمّي المال، فهذه هي المقاييس القرآنية، وهذه هي الحقائق القرآنية، التي لن تجدها في غير القرآن.

لذلك كثرة الخلطة بالناس تجعلك تكتسب مقاييسًا غير شرعية ومقاييسًا ظاهرية، وكثرة التعامل معهم وكثرة السماع لكلامهم يجعلك دائمًا تشعر بألم وبحزن، لذلك قال الله –عز وجل–: {من يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ}[المائدة:٥٤]، فتجد أن الجهاد يأتي معه اللوم دومًا، لأن دائمًا من يبذل يجد الناس تلومه، وتوهمه أن بذله لا يستحق. وإذا أراد أن يتصدّق بشيء تجده يلام: لم كل هذا المبلغ؟! لا يستحق هذا منك بذلا! وماذا سيحصل بأطفالك؟! فدائمًا من يريد البذل سيجد عبارات: لا فائدة لذلك وستخسر.

فأي بذل معه لوم، وباستجابتك للوم الآخرين فإنك تقيس الأمور بمقاييس أرضية، فقد لا يمتلك اللائم هذا الإدراك، لكن هنالك آيات ومعاملات لأهل الإيمان واليقين فقط!

انظر آخر سورة الروم: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ...}، وهذا يعني أنه سيكون هناك من سيجادلك، ولكن: {وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}[الروم:٦٠] ، ومن عدم اليقين لا يفهم؛ لأنّه فاقد للإدراك لما تشعر به أنت من معان، فلا تنزل نفسك منزله ومستواه.

إذًا فالآية: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ} هي مثل قوله –عز وجل–: {سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}، فدخول الجنة يكون بفضل من الله –عز وجل– وليس جزاء على أعمالنا، فأعمالنا لا تساوي تفاصيلها أبدًا.

والمقصودون في الآية: {... لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} ، هم أهل الإيمان الذين بذلوا وتعبوا، ووصلوا لمرحلة من التعب واللغوب والنصب، فيبشرهم الله –عز وجل– أنهم مثلما تركوا الزينة في الدنيا يبدلهم الله الزينة في الجنة، ومثلما تنقلوا وخرجوا من بيوتهم يحلهم الله عز وجل دار المقامة.

لذلك الآية: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}[الشرح:٧] ، وقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)[٨] ، والمؤمن لا يوجد عنده فراغ، فإذا فرغ من عمل: {فَإِذَا

[٨] [عن عبدالله بن عباس:] نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ.

فَرَغْتَ} فماذا يفعل؟! عليه أن ينصب: {فَانصَبْ}، وأن ينتقل إلى عمل آخر ويجاهد ويبذل فيه، لأنّ المؤمن لا يعيش لحظات الفراغ، بل المؤمن دائمًا يودّ لو يشتري كل أوقات الفراغ من عند الناس فعنده كم من الطاعات كثير جدًا يريد أن يفعلها.

وتأتي الآية والعياذ بالله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا}[فاطر:٣٦]، لتبين أشد آيات الألم وأشد أنواعه وهو أن يتلقى الإنسان عذابًا يكاد يميته ثم لا يموت! لذلك قالوا من أشد آيات العذاب في القرآن وتوجد في أكثر من آية منها: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}[إبراهيم:١٧] _والعياذ بالله_

ماذا تعني {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ}؟ أي تأتيه أسباب الموت من كل مكان، كأن يأخذ مثلًا ضربةً بحديد على رأسه، يفترض أن يموت منها، لكنّه لن يموت في النار، و كأن يحدث في رجله كذا، وفي بطنه كذا، وفي يده كذا، وأسباب الموت تأتيه من كل مكان لكن قضى الله أنه لن يموت والعياذ بالله.

فمن أشد أنواع العذاب أن يتلقّى الإنسان عذابًا يميت ثم لا يموت، ويتمنى الموت ثم لا يجده: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}[الزخرف:٧٧] .

وكلمة لهم في: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ..} وكأنها أُعدّت خصيصًا لأعمالهم، علمنا أنّه لن يموت، طوال هذه الفترة، لكن هل سيخفف عنه العذاب؟! أبدًا: {وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا}.. اللهم أجرنا من النار.

إذًا هو لن يموت في النار، ولا العذاب سيقلّ.

وانظر في "كفور" في الآية: {وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} انظر كيف يعامله ربنا الشكور، ثم يكون كفورًا والعياذ بالله، وكفور صيغة مبالغة: أيّ كفر بكل شيء، وبنعم الله وآياته وآلائه وأسمائه وصفاته، فعلى قدر هذا الكفر يأتي العذاب على قدره.

ويكون حالهم حينئذ موصوفًا بتكملة الآية :{وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا}[فاطر:٣٧] ، وقال الله –عز وجل– بأنهم يصطرخون فيها وليس يصرخون، فما الفرق بين يصرخ ويصطرخ؟!

يصطرخ كلمة تحمل المبالغة فكأنه يصرخ ويصرخ ويصرخ، ثم ينادي بأعلى صوته، لعل أحدًا يجيبه، ثم يصرخ ويصرخ ويصرخ، ولا يجيبه أحد والعياذ بالله!

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤١٢ • [صحيح]

ومن أشد أنواع الألم أيضًا أن تتألم ولا يراعي أحد هذا الألم، كأن يكون هناك شخصًا مريضًا في المستشفى ويظل يصرخ والناس تمر من أمامه بلامبالاة فيزيده هذا ألمًا على ألمه، بل و يبكت فيقال له: إنك تستحق هذا! وهذا عذاب التبكيت النفسي الذي تفعله الملائكة.

فيضاف إلى هذا العذاب الجسدي العذاب المعنوي –التبكيت–، فتقول الملائكة يومئذ: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ} ؛ أيّ ألم يأتكم رسل؟! ألم تأتيكم؟! فهو على هذا الحال يبكَّت، ويؤنَّب، ويذكَّر بأوقات الطاعة التي تركها، وبالمعاصي التي فعلها، فتزداد عليه الآلام.

والجزاء من جنس العمل، لأنّه كان يعذب المؤمنين في الدنيا، فعندما تقرأ ماذا فعل المشركون في مكة بأهل الإيمان من ألوان التعذيب، والتفنن إذ كانوا يأتون بهم في الصحراء ويضعون عليهم الصخرة في الحر ويصرخ أهل الإيمان ولا يعذروهم، بل وصلوا معهم لمراحل من التعذيب أنه يعذبه لدرجة أن يجعله يقول: الجُعل خير أم إلَاهك؟! حتّى يقول المؤمن: الجُعل خير، من شدة التعذيب! فكما كانوا لا يعذرون أهل الإيمان كذلك اليوم لا يعذرون، والجزاء من جنس العمل.

وذلك اليوم: {تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ}[إبراهيم:٤٩] ، مثلما كانوا يربطون أهل الإيمان في الدنيا، وهذه الآيات حينما يقرؤها أهل الإيمان، وحينما كان يقرؤها الصحابة كانوا يشعرون بقوة نفسية تجعلهم يجابهون الهموم، ويقاتلون الآلام، وتجعلهم لا يلتفتون إلى آلام الجسد، ولكن يستشعرون لذة الروح؛ لنصرة هذا الدين والتضحية لأجله.

تخيّل عندما يأتي إنسان من أهل الإيمان ليلًا ويردد: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}[المسد:١] ، فكأنّه ينتقم، ويغذي نفسه بهذه الآيات ويصبرها.

ويقرأ: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ}[إبراهيم:٤٩]، و يعلم يقينًا أنه سيأتي وقت ويرى فيه بعينيه المجرمين مقرنين في الأصفاد.

ويقرأ: {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}[المطففين:٣٤-٣٥] ويعلم يقينًا أنه سيأتي يوم يضحك فيه أهل الإيمان من الكفار كما ضحك الكفار من أهل الايمان في الدنيا.

وقيل في معنى على الأرائك ينظرون: أن أهل الإيمان يجلسون على الأرائك في الجنة وتفتح لهم شبابيك أو كوات ينظرون منها إلى جهنم على مواطن تعذيب من عذبهم في الدنيا، حتى يزدادوا فرحًا عندما يرون أنهم استردوا حقهم من الكفار الظالمين، فالجزاء من جنس العمل.

كما في الآية: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ}، ولا يجيبهم أحد، ومعنى يصطرخ: يتكلف وينادي بأعلى صوته لأول مرة ولا يجيبه أحد ، فيبقى على صراخه لسنوات! تخيّل: {لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}[النبإ: ٢٣]، وقيل الحقبة الواحدة ثمانون سنة، فمن الممكن أن يصرخ لمدة ثمانين سنة ولا يسمعه أحد.

وروي عن ابن عباس: أن دموع أهل النار تشق الأخاديد من كثرة بكائهم، وتحفر في وجوههم حفرًا لو سارت فيها السفن لانطلقت! وهذا ليس تخيلًا وإنما هذا هو حال من هم من أهل النار، ويكون جسد الكفار ضخمًا في جهنم، كي يذوق ألمًا أشد! وضرس الكافر يكون في حجم جبل أحد، وكلما زاد حجم الكافر كلما زادت ألوان العذاب عليه، {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}[النساء:٥٦] والعياذ بالله.

ويقولون بعد ذلك كلّه {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا}! الآن يقولون: "ربنا"! والله يكلمك -سبحانه وتعالى- من أول السورة ويقول لك: ربنا الذي خلق، وربنا الذي رزق ونوّع، وأعطى، و أنزل، وفعل وفعل، ولكنك أبيت أن تقول ربنا، آلآن تقول ربنا!

فلم على الإنسان أن يذوق العذاب حتّى يقول ربّنا؟! وماذا يريد بنادئه؟! يقول: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}، إذًا فهو كان يعمل، ولكنّه لم يكن في سبيل الله.

لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أصدق الأسماء حارث وهمام)[٩] ، وحارث بمعنى: العامل، وهمام بمعنى: من عنده هموم ، وأصدق الأسماء يعني: الاسم على مسماه حقيقة، فمن الممكن أن يسمى شخص بكريم وليس فيه حفنة كرم. فمعنى قوله -صلى الله عليه وسلم- أن الاسم دالّ على معناه، واسم حارث صادق لأن كلّ الناس تعمل، واسم همام صادق لأن كل الناس عندها هموم.

[٩] أصدقُ الأسماء: حارثٌ وَهمّامٌ
ابن تيمية (ت ٧٢٨)، مجموع الفتاوى ٢٩٥/١٤ • صحيح •

لكن الفارق بين الشخص والآخر هو ما همه وما عمله! وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلُّ النَّاسِ يَغْدو، فَبائعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُها أَو مُوبِقُها)[١٠] ؛ أيّ كل الناس تتحرك، فإما أن تُدخِلَ النار بعملها، وإما أن تعتق من النار بعملها.

فيقول: يا رب أخرجني لقد علمت أن أعمالي كانت خاطئة وأريد أن أصلحها الآن: {أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا}، الآن تظهر مقاييس الأعمال الحقيقية، ففي الدنيا كان هذا المرء يعمل فيصفق له النّاس ويسعدون به، فيغتر، ويظنه عملًا صالحًا، لكنّه في الحقيقة عمل يغضب الله، لأن رضا الناس ليس المقياس الحقيقي لصلاح العمل، فلما ظَهرت له مقاييس الأعمال الحقيقية وقت العذاب، يقول: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا} ولا يريد أي عمل بل يريد غير الذي كان يعمل.

ولقد كانوا يعملون ويبذلون ويتألمون كما قال الله تعالى: {إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ}[النساء:١٠٤] ، و { إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}[آل عمران:١٤٠] ، لكنهم بذلوا ضد الدين، ولم يريدوا البذل في الصالحات.

فيكون الرد على طلب الخروج والرجوع في تكملة الآية: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ}، وهو عذاب التبكيت، فالوقت كان كافيًا بالنسبة للامتحان، والمنهج جاءكم وهو القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانت الفرصة عندكم، ولو ردوا مرة أخرى للحياة الدنيا لعادوا لما نُهُوا عنه، فمع الوقت سيذهب من ذاكرتكم ما رأيتم من عذاب وستنسون: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ}[الأنعام:٢٨]، كشخص-عافانا الله- متهور في قيادته لا يسير إلا على سرعة ١٨٠ وأصيب في حادثة، وبقي فترة طويلة يعالج، ثم بدأ يفيق مرة أخرى، فتجده في بادئ الأمر يسير بحذر كبير على سرعة ٢٠، وينتبه إلى الإشارات وحزام الأمان، ومع الوقت يزيد السرعة من ٢٠ إلى ٤٠ ثم إلى ٦٠ ثم إلى ٨٠ ثم يبدأ القيادة بدون حزام الأمان، فينسى ما أصابه.

ذلك بأن غير المنضبط من البداية لن ينضبط. فعندما يقول الكافرون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}، يقول الله تعالى: لا لن تخرج لأن الفرصة جاءتك والوقت كان موجودًا: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ}، وكان غيركم من الناس موجود في نفس هذه الفترة وتذكر، وعلى هذا فإن

[١٠] [عن أبي مالك الأشعري:] الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّمواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها. مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٢٣ • [صحيح]

المسألة ليست مسألة وقت، فالذي مات وعمره خمس وعشرين سنة، لا نقول: لو كان ست وعشرون لكان تاب وأناب، فالله عدل والوقت كان كافيًا.

وأعذر الله -عز وجل- إلى امرئ أخَّر أجله إلى ستين سنة، ويقولون هذا عمر العذر، مثلما في البخاري: أعذر الله -عز وجل- إلى رجل أخره إلى ستين سنة [١١] ، وأي إنسان يموت قبل ذلك فقد كان وقته كافيًا له! لأن غيرك لبث كما لبثت وتاب وأسلم وأناب، وهذا بالنسبة للوقت، وبالنسبة للمنهج فقد جاءك: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا}، وجاءكم النذير، فليس لك عذر.

ويقال له أيضًا: {فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ}[فاطر:٣٧]، تخيل أن الإنسان يصطرخ ويقال له: ذق! ما الذي يجعل الإنسان يختار هذا المكان؟! والعياذ بالله. ولا يوجد ما ينفع الظالمين وقتها، لا آلهة ولا شفعاء ولا مال، {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ}[الليل:١١]؛ وتردى أي: سقط في جهنم!

{إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[فاطر:] قيل في معنى الآية أن بعض الناس قد يخطر لديه شبهة فيقول لنفسه: من الممكن أن يتوبوا إن رجعوا! فيقول الله -سبحانه وتعالى- {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، فالله يعلم بأنهم كاذبون ويدّعون الإيمان لحظةَ الألم من العذاب، ولو ردوا للحياة الدنيا لرجعوا لكفرهم. وقيل أن الآية عامة في السياق العام للسورة أنّها تدل على الملك والعلم والقدرة التامّات لله -عز وجل-، وتتكرر هذه الصفات كثيرًا في القران.

ولم يقل -عز وجل- [عالم ما في السماوات وما في الأرض] ولكنّه قال {عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهو الغيب بالنسبة لنا، ولكنّه ليس غيبًا بالنسبة له. وكشيء أخص وهو جزء من غيب السماوات والأرض علمه بذات الصدور: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

وأيضاً قيل من معاني الآية: أنّها تتحدث في مسألة نزول الوحي واصطفاء النبي -صلى الله عليه وسلم- به، واصطفاء هذه الأمة وجعلها خلفة للأمم السابقة، فقال -عز وجل- في الآية التي تليها: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ}[فاطر:٣٩] ، وقيل معنى خلائف في الأرض: أيّ يأتي بأقوام يخلفون أقوام آخرين بعد أن ينزل عذاب بالسلف يستأصلهم. ومن المفترض أن يتعظ الخلف بمن كان قبلهم، فمثلًا

[١١] [عن أبي هريرة:] لقدْ أعْذَرَ اللهُ إلى عبدٍ أحْياهُ حتى بَلَغَ سِتِّينَ أو سَبعينَ سنةً، لقدْ أعْذَرَ اللهُ إليهِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٥١١٨ • صحيح • أخرجه البخاري (٦٤١٩) بنحوه مختصراً، وأحمد (٧٧١٣) واللفظ له •

كان من المفترض أن يتعظ قوم هود بقوم نوح، أو يتعظ قوم لوط وقوم شعيب بمن كان قبلهم، ولكن لم يتعظ احد!

وقيل معناها –خلائف في الأرض–: أنّه اختاركم واصطفاكم لتكونوا خلفاء لدين الله في الأرض – وذكرنا الخلاف في مسألة خليفة في آخر الأنعام وهل يجوز أن يقال خليفة الله في الأرض أو لا– بمعنى أنّه لما قال –سبحانه وتعالى–: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[البقرة:٣٠]؛ أن له مرادًا، ومراد الله –عزّ وجلّ– في السماء تقوم به الملائكة، كما تقوم أيضًا بالأمور المنوطة بعملها في الأرض، أمّا إقامة الشرع على الأرض فهي وظيفة الإنسان التي وكّلها الله له.

وقيل هذا من معاني الأمانة: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ}[الأحزاب:٧٢]، فوظيفة الإنسان في الأرض أن يقوم بشرع الله، لكنَّ هناك من رفض هذه الوظيفة وهو الكافر فأخذ يزداد من الدنيا ومن الزينة والنعيم والترف فرحًا بها، والله –عز وجل– يقول له مهما كان معك من الدنيا فكفرك لا يزيدك عندي إلا مقتًا، فالدنيا لا تصرف مقت الله عن الإنسان: {فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا}[فاطر:٣٩].

لكن أهل الأرض من الممكن أن تغرهم المقاييس الدنيوية، فقد يأتون لكافر لديه أموال كثيرة فإن حدثتهم في موضوع الكفر والإيمان فمن الممكن أن يقولوا لك: انسى كفره، ودعنا فيما يملك من مال وزينة.

وذلك كان حالُ قوم قارون، إذ قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ}[القصص:٧٦]، فهؤلاء كانوا يعلمون أن قارون ظالم ومتكبر، ورغم ذلك لما خرج عليهم بزينته قالوا: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[القصص:٧٩]، فهم يطمعون أن يملكوا ما يملك بغض النظر عن كفرِه وظلمه! وهو ذو حظ عظيم في المقاييس الدنيوية. ولكنّه عند الله –عز وجل– كما قال: {وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً}.

وقال الله –عز وجلّ–: {وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم}[البقرة:٢٢١]، فحتّى وإن أعجبكم الكافر سيظل ممقوتًا عند الله –عز وجل–، وعندما يدخل جهنم فإنه –الكافر– يمقت نفسه ويسبها عندما يدخل النار ويتذكر لحظة رفضه للإيمان عندما

دعي إليه كما في الآية: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ}[غافر:١٠].

وذُكر حرف إذ في: {إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ}؛ لتدل على أن الكافر وهو في النار يتذكر لحظات الدعوة إلى الإيمان ويقول يا ليتني استجبت ويسب نفسه، فيقال له أنت تكره نفسك في هذه اللحظة فالله يمقتك أكثر ممّا تمقت أنت نفسك.

أو{إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} هي أكثر لحظة تستجلب المقت والبغض من الله -عزّ وجلّ- للعبد حين يدعى للإيمان فيكفر.

وهذه الآية تبين عِظم قيمة قضيّة الإيمان والكفر عند الله -عز وجل-، وتدعو الإنسان إلى عدم الاغترار بالظاهر الدنيوي، فقضية الإيمان والكفر قضية عظيمة عند الله، فيقول -عز وجل- {وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا}، ويقول النبي -صلى الله عليه وسلّم-: (لو كانت الدُّنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافرَ شربةَ ماء)[١٢] ، وذلك لبيان حقارة الكافر وأنَّه لا يستحق منها شربة ماء إن كانت تساوي شيئًا أو جناح بعوضة عند الله.

فالكفر شيء عظيم وجريمة كبرى عند الله -عز وجل- ورغم ذلك يُتهاون به ويتعامل معه كشيء ثانوي! وأن المهم للإنسان: نسبه، وبلده، وو، بعيدًا عن إيمانه وكفره.

وأمّا ما يحققه الكفار من إنجازات في الدنيا فمآلها إلى الخسارة حتما عند الله -عزّ وجلّ- في الآخرة {وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا} خسارًا عند الله -عز وجل-، خسارًا في الآخرة، خسارًا بالنسبة لمجموع الكفار وليس لأفرادهم، وسنتكلم عن هذه النقطة عند قوله -عز وجل-: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}[فاطر:٤٣]، ففارق بين أفراد الكفار وبين مجموع الكفار.

ومن عجيب ما اختص به القرآن أنه يكسر حواجز الزمن، وأنَّه ينتقل لحظيًّا بين الدنيا والآخرة ثم يعود، فكانت الآيات تتحدث عن الكفار وهم يصطرخون في النار، ثم عادت فجأة تسألهم في الدنيا وهم أحياء مرةً أخرى! فالآيات تحدثت بصيغة الماضي عن أهل الجنة: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ}، وبصيغة المضارع عن أهل النار، ثم عادت فجأةً إلى الدنيا تسألهم: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ

[١٢] [عن سهل بن سعد الساعدي:] لو كانتِ الدُّنيا تعدلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربةَ ماءٍ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي ٢٣٢٠ • صحيح

اللَّهِ}[فاطر:٤٠]، أي لماذا كفرتم بربكم؟! وهذا من خصائص القرآن أنه يطوف بك ويكسر حواجز الزمان والمكان، وهذا غير موجود إلّا في القرآن.

وهذه الآية -كما ذكرنا في سورة سبأ- تتكلم عن قضية التجريد من كل المخلوقات، وأنَّ الملك لله وحدَه -سبحانه وتعالى- ولا يملك أحد من شيء إلّاه، ويسألهم فيها لماذا كفرتم؟! هل تملكون دليلًا عقليًا أو نقليًا على كفركم؟! هل آلهتكم تستطيع أن تخلق؟! إذًا {أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ}!

وكما قلنا أن تحدي الخلق هو التحدي الأول: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[العلق:١]، والتحدي في القرآن جاء بشيئين: بالخلق وبالوحي، فتحدَّاهم الله في القرآن أن يخلقوا، وتحدَّاهم أن يأتوا بكتاب مثله، وفشلوا في كليهما.

فهاتان من صفات الله -عزّ وجلّ- أنّه خلق وأنه أنزل وحيًا، والتحدي دائمًا بخلقه وبكلامه، وهنا جاءت بالاثنين: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}[الأعراف:٥٤] فهل خلقوا؟! وهل عندهم كتاب؟! لا.

ويسألهم الله في تكملة الآية: {أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ}؛ هل تشاركونه في شيء من خلقه؟! حاشاه -عز وجل-، لا، وهل الآلهة التي يعبدونها يخلقون كخلق الله فتشابه الخلقُ عليهم؟! لا، لا يخلقون شيئًا، أم لهم شرك في السماوات، وهذا بالنسبة إلى الدليل العقلي.

أمّا عن دليل النقل فيسألهم: هل معكم كتاب يؤيد شرككم؟! {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِّنْهُ}، فالإجابة: لا، إذًا كيف أشركت الألوف المؤلفة منهم؟! ذلك بأنّهم يسيرون على إثر بعضهم ويخدعون بعضهم البعض: {بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا}[فاطر:٤٠].

وقال الله -عزّ وجلّ- في أول السورة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[فاطر:٥]، وفي الختام يقول: {بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا} ، فذلك يعني أن ربّنا يقول لنا: أن ألوفًا مؤلّفة وملايين من البشر قد يسيرون في طريق الضلال وليسوا على حجة إنّما هي كذبة تقال ويمشي الجميع وراءها خداعًا دون بصيرة.

لذلك سورة الكهف تنجينا من الدجال الكذّاب في آخر الزمن، وأكبر كلمة كذب ضل بها ملايين البشر في الدنيا كلمة: أن لله ولد، فبدأت سورة الكهف بالآية: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}[الكهف:٥]، فهي كلمة واحدة ضل بها ملايين البشر! وكلمة كذب تخلد الملايين في

نار جهنم! يخدعون بعضهم البعض بمجرد كلام! وإن كان المسيح ابن الله: {فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [المائدة:١٧]! وهو وأمه عبدان: {كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ} [المائدة:٧٥]؟!

وأتى بها القرآن بكلّ الصيغ البسيطة كي نفقهها، فلماذا تعبدون المسيح؟! إنّها كلمة كذب وكبرت كلمةً تخرج من أفواهكم! لذلك كما بينت سورة الكهف زيف الدجال وضلاله، بينت أيضا هذه الكلمة الكذب –أن لله ولد–، وهي أكبر كلمة دجل خدع بها الناس.

فربنا –سبحانه وتعالى– يقول أنّهم لا يملكون أدلة، ولا معهم أيّ شيء، إذاً فماذا يفعلون؟! يخادعون النّاس ويراضون بعضهم: {بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا}، فلا تتعجب من انتشار مناهج الضلال.

كان الإمام القرافي يومًا في مناظرة مع أحد القساوسة، وكان يقول له: أنا لا أريدك أن تأتي ببراهين على عقيدتك لأنك لن تقدر، وإنما أطالبك بكلام يوافق العقل حتى أشعر أني –على الأقل– أناظر من عنده قدر من الفهم.

فتخيل كيف لهذا الكلام الذي لا يوافق العقل ولا يقبله بشر أن يضل ملايين البشر، وكيف لغيره من العقائد العجيبة –كالسجود للأحجار– أن يضل بسببه ملايين البشر! {بلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا}.

ومرة حدثني أحد الإخوة الأطباء في ماليزيا، بأن عطل ما حدث في بيته، فأتى بمهندس يصلح له هذا العطل وكان من عباد بوذا، وهذا الطبيب يقول كنت أمر على تمثال بوذا فأجدهم يضعون له تفاحًا وعصيرًا! ثم في اليوم التالي أمر فأجدهم قد غيروا الطعام، وهو لا يأكله لكن لا بد دائمًا من وضع شيء له، فانتهز الطبيب فرصة وجود المهندس في بيته وقال في نفسه: هذا الشخص لديه عقل وفهم فلأتحدث معه، فسأله عن التفاح والعصير وبوذا وكيف أنّه شيء لا يقبله العقل، فكان رد المهندس: إذا سمحت لا تتحدث معي في هذا الأمر! فهذه عادات وتقاليد، فقط أخبرني بالعطل ولا تتحدث معي في هذا الموضوع! إن عقله مغلق، لا يريد التفكير لأنه يعلم أنه لو فكر سيكتشف خطأه ولا بد إذًا أن يتغير، ويترتب بعد ذلك حلال وحرام، فاختار أن يظل على ما هو عليه، فذلك أفضل عنده.

كذلك الآية: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ}[العنكبوت:٢٥]؛ أي اتخذتم مصالح بينكم، كما صنع السامري لبني إسرائيل عجلًا له خوار ففرحوا به وأضلهم، فتبادلوا المصالح واتخذوا العجل إلهًا وقبض هو الثمن: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ}[طه:٨٨] .

فهذه آلهتكم التي لا تملك أن تفعل شيئًا، وهذه قدرة الله فانظروا: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا}[فاطر:٤١].

إنّها آية عجيبة! لأنّ الله قال لهم: أنتم لم تخلقوا شيئًا، ولا معكم من كتاب، ولا يوجد لديكم وحي، ولا أنتم برازقين أحد، فكان المتوقع أن يقول الله بعد هذا: إن الله يرزق، أو شيئًا آخر في مستوى قدرتهم على التخيّل، لكنّه أتى بأمر عظيم لا يمكن أن تتخيله! وهو أن تزول السماوات والأرض وتختفي! وأن تفقد إتزانها!، وأن تتخبط الأجرام والكواكب والشموس والنجوم ويتفكك هذا النظام الكوني!

هذا الكون فيه أمور عظيمة! لكننا على مستوى محدود من التفكير يقتصر على الأموال التي نريدها، وعلى ابننا المريض، وما شابه من مشاكل الدنيا، هذه غاية مشاكلك لكن الكون فيه أمور عظيمة لا يدبرها إلا الله، ولو تعطلت لن يصلحها إلا هو -سبحانه وتعالى-، والأرض كلها بقواها العظمى -كما يسمونها- هي مجرد نقطة في بحر الكون العظيم!

إذًا القرآن يوسع أفقك، فلابد أن تدري من هو ربّك، وهو من يمسكها ولو تركها لزالت، وقيل الزوال بمعنيين: إما الذهاب كليةً؛ أيّ الفناء، أو أن تزول بمعنى تتحرك، مثل زوال الشمس -أي حركتها عن كبد السماء-.

فعندما تصيبنا مشكلة في الكهرباء -مثلًا- نجمع الأموال ونصنع محولات، أو مشكلة في الماء وبالمثل في مشاكل الدنيا، فإننا نبحث لها عن حلول، لكن لو كانت المشكلة هي ترك الأرض لمكانها ماذا سيفعل البشر!، أو أن مذنبا سيسقط على الأرض ليحطمها، فماذا سيفعل النّاس؟! إذا كانت مجرد حمى بسبب فيروس يئس البشر وينفقون الملايين لمواجهته! كحمى نقص المناعة المكتسبة -الإيدز-أو كالحصبة الألمانية وكلّ يوم يكتشفون جديدًا يعجزهم، فما بالك لو اصطدم كوكبا المريخ والمشتري بالأرض؟! ولو لم يعد هناك جاذبية؟! ماذا سيفعل البشر؟! لا شيء، سيقفون وينظرون ويبكون حتى يقضي الله أمرًا.

إذًا فالله ينبهك لوجود قضايا ضخمة في الكون أكبر من كل مشاكل البشر الصغيرة، فالقرآن يعلو بك تمامًا!

{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[فاطر:٤١]، ولو زالتا لا يرجعهم إلا هو سبحانه ولن يمسكهما من أحد من بعده، أي هو فقط سبحانه من يمسكهما، ولو تركهما ما قدر كل البشر على شيء ولو اجتمعوا.

(يوجد كتاب جميل جدًا اسمه :لسنا بمأمن، يذكر العدد الهائل من الأخطار التي يعيشها البشر على الأرض ولا يستطيعون أن يتصرفوا حيالها بشيء، وأن ربنا فقط هو من يحفظهم منها، سواء كان التلوث في الهواء أو الماء، أو في اصطدام المذنبات بالأرض، أو في خروج الأرض عن مسارها، فهي قضايا ضخمة لا يملكها إلا الله ولا يُدبرها إلا الله –سبحانه وتعالى–.

{وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} فالله –عز وجل– رغم كل هذا العصيان من البشر له مع هذه النعم حليم عليهم! ولم يرد أن يذهبهم ويأتِ بقوم آخرين كما ذكر في نفس السورة: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}[فاطر:١٦-١٧] فربنا حليم ، وسيأتي معنا في آخر السورة: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ}[فاطر:٤٥]، لكن ربنا حليم، فنحن نرتكب أعمالًا تستوجب الغضب لكن ربنا حليم.

وماذا قال بعد {حَلِيمًا}؟! قال: {غَفُورًا}! فيجب أن نتوب، لأن الله يحلم علينا ويتركنا لكي نتوب ولا ينزل علينا العذاب.

أسأل الله –عز وجل– أن يتوب علينا جميعًا وأن يصرف عنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.